

مصطلح النظم في النقد العربي القديم

عبد القادر بقادر

جامعة ورقلة (الجزائر)

مفهوم النظم لغة واصطلاحاً:

جاء في معجم العين: "نظم: النظم نظمك خرزا بعضه إلى بعض في نظام واحد، وهو في كل شيء حتى قيل: ليس لأمره نظام أي لا تستقيم طريقته. والنظام: كل خيط ينظم به لؤلؤ أو غيره فهو نظام."⁽¹⁾ وفي صحاح العربية: "نظمت اللؤلؤ، أي جمعته في السلك والتنظيم مثله، ومنه نظمت الشعر ونظمتها، والنظام: الخيط الذي ينظم به اللؤلؤ... ويقال لثلاثة كواكب من الجوزاء: نظم."⁽²⁾

وجاء في مختار الصحاح: "نظم: اللؤلؤ جمعه في السلك وبابه ضرب. ونظمه تنظيماً مثله ومنه نظم الشعر ونظمه والنظام الخيط الذي ينظم به اللؤلؤ. ونظم من لؤلؤ وهو في الأصل مصدر. والنظام الاتساق."⁽³⁾ وفي لسان العرب: "نظم: النظم: التأليف نظمته ينظمه نظاماً ونظمه فانتظم وتنتظم، نظمت اللؤلؤ أي جمعته في السلك. والتنظيم مثله ومنه نظمت الشعر نظمته، ونظم الأمر على المثل. وكل شيء قرنته بأخر أو ضمنت بعضه إلى بعض فقد نظمته... والنظام كما نظمت فيه الشيء من خيط وغيره وكل شعبه منه وأصل نظام. ونظام كل أمر ملاكه، والجمع أنظمة وأناظيم ونظم"⁽⁴⁾

وفي المصباح المنير: "نظمت الخرز نظاماً من باب ضرب. جعلته في سلك. ونظمت الأمر فانتظم أي أقمته فاستقام وهو على نظام واحد؛ أي نهج غير مختلف. ونظمت الشعر نظاماً"⁽⁵⁾

مصطلح النظم اصطلاحاً:

قال فخر الدين الرازي: "خلوص الكلام من التعقيد. وأصله من الفصيح وهو اللبن الذي أخذت منه الرغوة."⁽⁶⁾ ويعرفه الجرجاني بقوله: "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيع عنها. وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها."⁽⁷⁾ ويقول الدكتور صالح بلعيد: "هو تأليف وضم مجموعة من العناصر المتحدة في العملية اللغوية ليكون الكلام حسناً حسب خصائص معينة هي:

1 . حسن الاختيار لأصوات الكلمة

2 . تعليق الكلمة في ذاتها

3 . تعليقها بما يجاورها وليس بضم الكلمات كيف ما جاءت

4 . مراعاة الموقع النحوي الأصل حسب ما تقتضيه بيئة العربي

5 . مراعاة المعنى المباشر (السطحي) غير المنزاح، والمعنى غير المباشر (المنزاح)⁽⁸⁾

مما سبق في المفهوم اللغوي والاصطلاحي نستخلص ما يأتي: النظم: هو ضم الكلمات حسب ما يقتضيه الحال وفق التقليد المأثور عن العرب باعتباره المقياس الحقيقي للبلاغة. وهو التأليف في الكلام ليصبح حسناً مقبولاً.

مصطلح النظم في النقد العربي:

تكلم العرب اللغة العربية في الجاهلية سليقة، وكانت فصاحتهم عالية وتجلّى النظم عندهم في تمييز شاعر عن آخر، لا يستند إلى منهجية، ولما جاء القرآن الكريم أبهر العرب ببلاغته ونظمه العجيب وحسن سبكه؛ حتى قيل: "ومن أعجب ما رأينا في إعجاز القرآن وإحكام نظمته، أنك تحسب ألفاظه هي التي تتفاد لمعانيه، ثم تتعرف ذلك وتتغلغل فيه، فتنتهي إلى أن معانيه مقادة لألفاظه ثم تحسب العكس، وتتعرّفه منتبها فتصير منه إلى عكس ما حسبت، وما إن تزال مترددا على منازعة الجهتين كليهما، حتى ترده إلى الله الذي خلق في العرب فطرة اللغة، ثم أخرج من هذه اللغة ما أعجز تلك الفطرة".⁽⁹⁾ وكان القرآن مصدر تحد لهم إذ حاول العرب عبثا أن يأتوا بمثله لما في نظمته من أسرار، ولقد كانت بعض مجالس الأدب والسمير وحلقات الخلفاء موضع تدارس الإعجاز القرآني، ومن ذلك تأليف الكتب الكثيرة التي تبحث في إعجاز القرآن الكريم، وما أدى إلى اهتمامهم بصناعة الكلام وسلامة اللغة وعلاقة الألفاظ ببعضها البعض، وعلاقتها بالمعنى. ونتيجة لذلك ظهر في الأدب العربي فريقان أحدهما انتصر للمعنى، وآخر انتصر للفظ دون المعنى واحتدم الصراع.

ومع بداية العصر العباسي اختلط العرب بغيرهم من الأمم المجاورة بسبب انتشار الإسلام. فبدأ الذوق العربي ينشوه ونقشى اللحن، فكان القرآن الكريم أول المصادر والمقاييس التي يرجعون إليها في تقويم لغتهم، زيادة على الشعر العربي (ديوان العرب)، فوجدوا في القرآن الكريم دافعا آخر للبحث والتأليف فيه وفي الأدب وأوجه البيان والنظم. تردد مصطلح (النظم) كثيرا في كتب العلماء نحاة وبلاغيين قبل الجرجاني بمئات السنين الذي تبلورت على يديه نظرية بلاغية نقدية قائمة بذاتها، لكن هذا المصطلح لم يكن بلفظه وإنما كان بألفاظ مختلفة وفي ما يأتي سنتطرق إلى ذلك المسار التاريخي للمصطلح.

1 . سيبويه ت: 180 هـ:

تحدث سيبويه عن ائتلاف الكلام، وقد جعل مدار الكلام على تأليف العبارة وعلاقة الألفاظ ببعضها البعض، حيث يرى أن وضع الألفاظ في مواضعها دليل على حسن ائتلاف الكلام (النظم)، ووضعها في غير موضعها دليل على فساده؛ حيث قال: "هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة فمنه مستقيم حسن، ومستقيم محال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب، فأما المستقيم الحسن فقولك: سأتيك غدا...، وأما المحال فأن تنتقد أول كلامك بآخره فتقول: أتيتك غدا...، وأما المستقيم الكذب فقولك: حملت جبلا...، وأما المستقيم القبيح كأن توضع اللفظ في غير موضعه نحو قد زيدا رأيت...، وأما المحال الكذب فأنت تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس".⁽¹⁰⁾

إن سيبويه في هذا الكلام لم يشير إلى مصطلح النظم ولكنه لمّح وأشار إليه بكلمة الاستقامة، وكان ذلك انطلاقا من المفردة لضمها في شكل كتل ومجموعات (كلام مفهوم وتراكيب)، منطلقا مما تفوه به العرب السليقيون وبذلك كان سيبويه أول من أقام للكلام الجيد أسسا من أبنية مفردات اللغة، وتوصل إلى وضع الأسس الأولى للنظرية اللغوية في مسألة حسن الكلام بوضع، ضوابط الكلام من كلام العرب.

2 . بشر بن المعتمر ت: 210 هـ:

إن بشر بن المعتمر تحدث عن علاقة اللفظ بالمعنى حيث قال في صحيفته: "وإياك والتوعر فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين ألفاظك، ومن أراد المعنى كريما فليلتصم له لفظا كريما، فإن حق

المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما⁽¹¹⁾، ويستأنف: "وتجد اللفظة لم تقع موقعها، ولم تصر إلى قرارها، وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها، والقافية لم تحلّ في مركزها، وفي نصابها، ولم تصلّ بشكلها، وكانت قلقة في مكانها نافرة من موضعها فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول في غير أوطانها، فإنك إذن لم تتعاط قرض الشعر الموزون"⁽¹²⁾

إن ما جاء به بشر بن المعتمر إنما يدور حول علاقة اللفظ بالمعنى، فهو يرى في القول الأول على المتكلم أن يبتعد عن التوعر (الوحشي من الكلام) الذي يسلم إلى التعقيد، ويبحث عن الألفاظ الكريمة للمعاني الكريمة. وفي القول الثاني يتحدث عن قرض الشعر فيرى أنه يجب على الشاعر أن يكون طبعيا مبتعدا عن الصنعة في كلامه بمعنى أن يضع الكلام في موضعه، وهذا كله إشارة إلى مصطلح النظم الذي لم يذكره بشر .

3 . الجاحظ ت: 255هـ:

فرّق الجاحظ بين نظم الكلام ونظم القرآن⁽¹³⁾ إن الجاحظ لم يشر هو الآخر إلى مصطلح النظم وإنما أشار إلى الآتي: "وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج فيُعَلِّمُ بذلك أنه أفرغ إفراغا جيدا، وسبك سبكا واحدا. فهو يجري على اللسان كما يجري على الرهان"⁽¹⁴⁾ فقد ذكر الجاحظ (التلاحم، والسبك، والإفراغ)، كما تحدث عن اللفظة المفردة واشترط فيه شروطا، هي: "ومتى كان اللفظ أيضا كريما في نفسه متخييرا في جنسه، وكان سليما من الفضول بريئا من التعقيد حبيب إلى النفوس، واتصل بالأذهان والتحم بالعقول وهشت إليه الأسماع وارتاحت إليه القلوب وخف على ألسن الرواة"⁽¹⁵⁾؛ إن الجاحظ يجعل تلاحم أجزاء الكلام وحسن سبكه وإفراغه واختيار ألفاظه وبعده عن التعقيد مما يسهل وصوله إلى النفوس وفهمه، ومن هنا يبرز لنا اهتمام الجاحظ بالنظم.

4 . أبو سليمان بن محمد بن إبراهيم الخطابي ت: 388هـ:

تحدث الخطابي عن النظم في كتابه (بيان إعجاز القرآن) وأكمل ما جاء به الروماني لمسألة النظم بمعنى التأليف، وما تخضع له الألفاظ والمعاني من أمور لتمام هذا النظم والتأليف، فعرض الخطابي للعبارة كوحدة متكاملة في لفظها ومعناها ونظمها وكان تركيزه شديدا على موضوع النظم⁽¹⁶⁾، ويرى الخطابي أن كل كلام يقوم على لفظ حامل، ومعنى قائم، ورباط لهما ناظم؛ فهو كلام مستقيم بليغ⁽¹⁷⁾، وبذلك يكشف الخطابي عن نوع من الإحساس بانتظام عناصر النص الأدبي في وحدة خفية، مما يعطي النظم مفهوما جديدا يزداد وضوحا مع من جاء بعده.

5 - أبو بكر محمد بن الطيب الباقلائي ت: 403هـ:

اهتم الباقلائي بالنظم وبنفون البديع في القرآن الكريم ومعه يبدأ مصطلح النظم النقدي في الظهور إلا أنه لم يكن يستند إلى قواعد لغوية أو نحوية فهو يقول عن نظم القرآن: "وقد تأملنا نظم القرآن، فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه... على حد واحد في حسن النظم، وبديع التأليف والرصف، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا"⁽¹⁸⁾ فهو يرى بأن نظم القرآن مختلف عن كل جميع وجوه النظم المعتادة، وعلى هذا فهو لم يشذ عن إعطاء النظم ذلك المدلول الذي أطلقه عليه سابقوه؛ ألا وهو التأليف والضم والرصف غير مستند إلى أساس لغوي أو نحوي. ويقول معددا أوجه النظم في القرآن الكريم: "وهو أن عجيب نظمه، وبديع تأليفه لا تفاوت ولا تباين، على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها"⁽¹⁹⁾

6 - القاضي عبد الجبار ت: 415هـ:

مع القاضي عبد الجبار زاد المصطلح وضوحاً وبدأت الأسس اللغوية والنحوية لهذا المصطلح تتشكل بوضوح حيث يرى أن اللفظة لا تكون لها قيمة خارج التركيب، فلا تكون فصيحة ذات دلالة إلا وهي داخل التركيب، وهذا تحديد منه لم يسبق له من قبل في هذا المجال. فهو يورد نصاً لشيخه أبي هاشم يحدد فيه فهمه للفصاحة والنظم: "إنما يكون الكلام فصيحاً لجزالة لفظه، وحسن معناه، ولا بد من اعتبار الأمرين، لأنه لو كان جزل اللفظ، ركيك المعنى لم يعد فصيحاً، فإذاً يجب أن يكون جامعاً لهذين الأمرين، وليس فصاحة الكلام بأن يكون له نظم مخصوص، لأن الخطيب عندهم قد يكون أفصح من الشاعر، والنظم مختلف إذا أريد بالنظم اختلاف الطريقة"⁽²⁰⁾ من خلال هذا القول يتبين لنا أن القاضي عبد الجبار قد أدرك دور النظم في الفصاحة وإيصال المعنى المراد. ويعد هذا بداية تشكيل الأسس اللغوية والنحوية للنظم.

جئنا بهذه النماذج من العلماء الذين تطور مصطلح النظم على أيديهم. كما حاولنا أن نبين مفهومهم له عبر أزمنة مختلفة قبل عبد القاهر الجرجاني. فلمسنا لديهم تطوراً واتساحاً لهذا المصطلح من زمن لآخر. فلقد بدأ النظم فضفاضاً قابلاً لاستيعاب دلالات مختلفة عبر الزمن؛ فمن ثنائية اللفظ والمعنى التي تحدث عنها كل من سيبويه وبشر بن المعتمر، إلى السبك والرصف والتأليف عند الجاحظ والخطابي. وصولاً إلى بداية الأسس الأولى اللغوية والنحوية للنظم عند القاضي عبد الجبار. ومن هنا استقام في أذهانهم رؤية النص الأدبي من منظور ثنائية اللفظ والمعنى، دون أن يتخلوا عن الضابط لهذين العنصرين واللاحم لهما، مصطلحين على تسمية هذه العلاقة الضامة لعناصر النص باصطلاحات مترادفة كالسبك، والتأليف، والرصف. فكيف ينظر عبد القاهر الجرجاني إلى مصطلح النظم؟

النظم عند عبد القاهر الجرجاني ت: 474هـ:

لم يكن "عبد القاهر الجرجاني" بد وبين يديه مقاييس في تحليل بنية النص الأدبي، وفصاحته من أن يعيد التأسيس. شأنه في ذلك شأن كل ذهن عبقرى يجد نفسه في ملتقى طرائق التحليل المتنوعة للظاهرة الواحدة⁽²¹⁾، فكان منه أن وضع مفهوماً جديداً للنظم لم يسبقه إليه أحد من قبله فقال: "وأعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيع عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها"⁽²²⁾

إن عبد القاهر الجرجاني يعد مطوراً لإنجازات البلاغيين الذين كانوا قبله بتقديمه نظرية لغوية متكاملة عرفت بنظرية "النظم" يقول محمد مندور: "فمنهج هذا المفكر العميق الدقيق هو منهج النقد اللغوي، منهج النحو، على أن نفهم من النحو أنه العلم الذي يبحث في العلاقات التي تقيمها اللغة بين الأشياء"⁽²³⁾، ومنهج عبد القاهر في النقد قائم على النحو والمعاني الذي مرده إلى النظم وطريقته⁽²⁴⁾

ويقوم النظم عند الجرجاني على:

1. توخي معاني النحو:

إن النحو نظام اللغة وقانونها الصارم، وهو الواقي من الخطأ ويرى الجرجاني بأن النظم لا يحصل إلا بترتيب الألفاظ التي هي خدم للمعاني وخاضعة للنحو، وتوخي النحو يقصد به توخي تلك المعاني التي لا تخالف المنطق العقلي، ولا اللغوي، وتوخي النحو يعني مراعاة الذوق الدقيقة في مراعاة التأليف، فينظر مثلاً في الخبر وضروبه

ووجهه مثل القول: "زيد منطلق، زيد ينطلق، ينطلق زيد، منطلق زيد، المنطلق زيد، زيد هو المنطلق، زيد هو منطلق" (25)، فيتم النظر في الخبر و الوجه التي يقتضيها، والشرط وحالته، والحال و الوجه التي تراها فيه مثل قولك: "جاعني زيد مسرعاً، وجاعني يسرع، وجاعني وهو مسرع، وجاعني وهو يسرع، وجاعني وقد أسرع" (26)، ومعرفة موضع كل منها ومتى يجوز استعماله وهكذا يتبين ان النظم يقوم أساساً على معاني النحو وبدونه فلا قيمة لنظم ولا استقامة له كما يرى الجرجاني أنه من عوامل مراعاة النحو؛ عامل التقديم والتأخير ويقول في ذلك: "هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن واسع التصرف جيد العناية لا يزال يفتر لك عن بدیعة ويفضي بك إلى لطيفة ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه ويلطف لديك موقعه ثم تنتظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قُدم فيه شيء وحول اللفظ عن مكانه إلى مكان" (27).

2- لا فصاحة للفظة المفردة :

وهذا ما تكرر في كلام الجرجاني غير ما مرة وهذا بمراعاة العلاقات النحوية التي تفيدها في الجمل، وهو ينكر وجود جمال اللفظة خارج نطاق النظم، وهذا يتضح من خلال جمال اللفظة في مكان وقبحها في آخر:

قول البحرني:

أني وإن بلغتني شرف الغنى أحققت من رق المطامع اخدعي

وقول أبي تمام:

يا دهر قم من أخدعك فقد اضجبت هذا الأنام من خرقك

فترى كيف أن لفظة الأخدع كانت جيدة في قول البحرني، وقبيحة في قول أبي تمام، وعليه فالألفاظ لا تتفاضل من حيث هي مجردة ولا مفردة (الجانب المعجمي)، وهذا لا يدل على حذاقة اللغة بقدر ما يدل عليه معرفة ضم الكلمات بعضها إلى بعض، والجرجاني موقفه في النظم ثابت قائم على المعنى ويرفض تفاضل اللفظ مفرداً، ويرى أن الألفاظ المنظومة لاحقة للأفكار فهو يترك الترتيب لمرحلة لاحقة بعد أن تكون المعاني مقدرة في النفس وهذا تصريح بأولوية المعنى (28)، يقول الجرجاني: "وان العلم بمواقع المعاني في النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في المنطق" (29).

3- النظم واللفظ والمعنى:

إن الجرجاني أعاد النظر في قضية اللفظ والمعنى وثار ضد الفصل بينهما، وأكد على ثنائية اللفظ والمعنى؛ فهو يرى أن العبرة في مدلول العبارات لا في العبارات نفسها، وعليه فالمعاني تتزايد وإنما التزايد معلق بالألفاظ والربط بين اللفظ والمعنى لا يكون إلا عن طريق معاني النحو واحترام قواعده، إن نظم الكلم هي التي تقتضي آثار الألفاظ وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس (30).

نظرية النظم تقوم على أساس المعاني إذ لا قيمة للألفاظ المفردة؛ إذ هي تابعة للمعاني لاحقة لها لا يتم التعبير دون مراعاة معاني النحو، يقول الدكتور: "المعنى هو كيفية النظم على عكس ما كان يعتقد من أن المعنى يوجد ما قبل النظم يستدعى عارياً ويؤدي بهذه النسبة أو تلك" (31).

راح الجرجاني في مواضع عديدة من "دلائل الإعجاز" يرد على الذين قالوا بتقديم اللفظ دون معرفة المعنى، ومن ذلك يتضح بجلاء طريق الجرجاني بين اللفظ وبين صورة المعنى، وبشكل خاص حينما يفسر قول الجاحظ "المعاني

مطروحة في الطريق⁽³²⁾، ويرفض الجرجاني القسمة التي تداولت بين النقاد قبله وهي اعتبار الشعر لفظاً ومعنى لا ثالث لهما. فقد عاب هذا على أولئك النقاد وعلى الأخص ابن قتيبة، واعتبر الصورة مع اللفظ والمعنى، وهي تعبير عن النظم؛ إذ لا يوجد في نظره معان عارية، إنما هناك معان خاصة هي الصورة، فهو يرى لا وجود لمعنى دون لفظ، وبذلك يقترب من توحيد اللفظ بالمعنى في حيز الدلالة⁽³³⁾؛ بحيث إذا تغير اللفظ لزمه تغيير المعنى. كما يردّ على من يدّعي إمكانية تزايد الألفاظ فيقول: "مما تجدهم يعتمدونه ويرجعون إليه قولهم أن المعاني لا تزايد وإنما تزايد الألفاظ، وهذا كلام إذا تأملته لم تجد له معنى يصح عليه غير أن تجعل تزايد الألفاظ عبارة عن المزايا التي تحدث من توشي معاني النحو وأحكامه في بين الكلم لأن التزايد في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ونطق لسان محال"⁽³⁴⁾

4- النظم والجانب العقلي والنفسي:

بما إن اللغة عند الجرجاني هي المنطق و التصور الذهني أو هي ما يقوم به المتكلم و المخاطب من علاقات فان النظم قائم على التفكير والتروي ويقول الجرجاني : "وجملة الأمر أنه لا يكون ترتيب في شيء حتى يكون هناك قصد إلى صورة وصفة، وإن لم يقدم فيه ما قدم، أو ولم يؤخر ما أخر، و بدأ بالذي ثنى أو ثنى بالذي ثلث به لم تحصل لك تلك الصورة و تلك الصورة"⁽³⁵⁾ وعليه فالفكرة تكون قبل النطق بها والجانب العقلي هو العامل الأساسي في عملية النظم (فكل كلمة لها عشا المناسب لها والذي نبئت فيه فلا يمكنها أن تعيش خارجه)⁽³⁶⁾

5- التأليف بطرق التعلق:

ويقصد بالتعلق الإسناد فلا فعل دون فاعل، فالجرجاني يعد النحو هو النظم ولا نظم دون توشي معاني النحو، ونقد الجاحظ حين قال بأن الشعر صناعة فرد عليه بأن الصنعة تهتم بالشكل فقط ولا يمكن للنظم أن يقوم على اللفظ فقط، ويصح أن نقول أن التأليف بطرق التعلق تنتظمها معطيات داخل الجملة بشكل تام متكامل ليحصل النظام اللغوي، و يكون ذلك بترتيب المعاني في النفس أولاً ثم التعليق على الأصوات والألفاظ وما تؤديه من معاني ويليه ترتيب الكلم ثم اعتماد معاني النحو⁽³⁷⁾.

ما جاء به الجرجاني لا يعدو أن يكون تطوراً في فهم النظم وتأكيداً لأسسه الملتزمة في طرائق الضم والتركيب اللغوي مع ما يتضمنه من نفي للفصاحة عن اللفظة المفردة، وجعلها عاقلة بالسياق مما قد يوحي بأن طرائق التركيب هذه تنحصر فعاليتها في الألفاظ المتضامة وفق الموقع، والإعراب.

النظم بعد الجرجاني:

لم تتوقف دراسة مصطلح النظم في النقد العربي عند لجرجاني فحسب، بل خاض علماء فيه بعد الجرجاني ولكنهم لم يأتوا بالجديد ولا خلافة، بل ساروا على منواله يقرّون ما أقرّ، ويرفضون ما رفض إلا في القليل النادر.

الزمخشري ت: 527هـ:

لم يؤلف الزمخشري كتاباً خاصاً في النظم، لكنه تعرض للمصطلح من خلال حديثه عن الإعجاز في القرآن الكريم في كتابه "الكشاف عن حقائق التنزيل وعلوم الأقاويل في وجوه التأويل"، ما كان الزمخشري في كتابه الكشاف ليوقف عند كل آية من آي القرآن الكريم مفسراً وشارحاً، إنما كانت عينه متطلّعة إلى الكشف عن إعجاز النظم القرآني وأسراره في المفردات و التراكيب على السواء؛ فقد حاول أن يبرز مواطن الإعجاز في نظم القرآن عند تقديم كلمة على كلمة، أو اختيار كلمة بدل كلمة، أو حرف مكان حرف.⁽³⁸⁾

إذا كان الجرجاني اعتمد على موروث العرب من الشعر العربي القديم والحديث النبوي الشريف ليثبت براعة نظم القرآن الكريم، فإن الزمخشري اتخذ القرآن ميدانا له لإبراز عجب نظمته وتأليفه الذي أعجز العرب حتى تحدى الناس جميعا، يقول الزمخشري في مقدمة الكشف: "أنشأه كتابا ساطعا تبياناه، قاطعا برهانه، وحيا ناطقا ببيانات وحجج قرآنا عربيا غير ذي عوج، مفتاحا.....معجزا باقيا دون كل معجزة... أفحم به من طولب بمعارضته من العرب العرياء، وأبكم به من تحدى به مصاقع الخطباء"⁽³⁹⁾، إن الزمخشري كان يقف عند كل سورة من سور القرآن الكريم، بل عند كل آية من آية موقف المتأمل الأديب الباحث عن أسرار النظم والتأليف في تلك الآيات.

وغير الزمخشري كثير ممن بحثوا في المصطلح النقدي "النظم"، حتى وصلوا فيه إلى المستوى الصوتي في نظم اللفظ يقول مصطفى صادق الرافعي عن نظم اللفظة القرآنية: "إن طريقة نظم القرآن تجري على استواء واحد في تركيب الحروف باعتبار من أصواتها ومخارجها، وفي التمكن للمعنى بحس الكلمة وصفتها، ثم الاقتتان فيه بوضعها من الكلام..."⁽⁴⁰⁾

الخاتمة:

من خلال تتبعنا لمصطلح النظم عبر العصور والأزمنة المختلفة يمكننا الإقرار في ختام هذه المداخلة، إلى النتائج الآتية:

- 1) اهتمام العرب القدامى بالجانب النقدي منذ عصور قديمة، عرف خلالها النقد تطورا كبيرا.
- 2) حرص العرب على اللغة العربية وفهم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف كان من أهم الدوافع التي أدت إلى تطور المصطلح النقدي.
- 3) البحث عن أوجه الإعجاز القرآني في القرآن الكريم، والإعجاز النبوي في الحديث الشريف، كان وراء ميلاد مصطلح "النظم".
- 4) المصطلح النقدي "النظم" الذي وصل إلى تشكيل نظرية قائمة بذاتها عرف تطورا وتقدما على يد نقاد كان لهم الباع الطويل في الدراسة النقدية عبر أزمنة متقاربة من بينهم الجاحظ، الباقلاني، الخطابي، الجرجاني.
- 5) قبل تشكيل نظرية النظم عرف المصطلح تسميات كثيرة منها: السبك، الرصف، الائتلاف...
- 6) عبقرية الجرجاني وفهمه الدقيق والعميق للغة وكذا جهود السابقين له مكنه من الوصول بهذا المصطلح إلى ما وصل إليه في محاولة لإثبات الإعجاز القرآني والنبوي.

الهوامش

- 1 . الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تح: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، د ط، د ت، 165/8.
- 2 . الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط: 03، 1404 هـ - 1984م، مادة (نظم)، ص: 2041.
- 3 . محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، د ط، 1401 هـ - 1981م، ص: 668.
- 4 . ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، ط: 03، 2004م 578/12.
- 5 . أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي، المصباح المنير، 612/2.
- 6 . صالح بلعيد، نظرية النظم، ص: 161، نقلا عن فخر الدين الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز.

- 7 . عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط: 3 ، 1422 هـ . 2001م، ص: 63.
- 8 . صالح بلعيد، نظرية النظم، ص: 93.
- 9 . مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 48.
- 10 . سيبويه، الكتاب، تح: محمد عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط: 1، دت، 8/1.
- 11 . الجاحظ، البيان والتبيين،
- 12 . المصدر السابق.
- 13 . يذكر أن للجاحظ كتابا سماه نظم القرآن لكنه لم يصل إلينا.
- 14 . المرجع نفسه، ص: 49-50.
- 15 . الجاحظ، البيان والتبيين، 217/1.
- 16 . صلاح الدين محمد عبد التواب، النقد الأدبي دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن، ص: 76-77.
- 17 . مليكة النوي، مقارنة بين الأسلوبية ونظرية النظم، رسالة دكتوراة، جامعة باتنة، 1429 / 1430 هـ . 2009/2008م، ص: 148.
- 18 . أبو بكر محمد بن الطيب الباقلائي، إعجاز القرآن، ص: 31-32.
- 19 . المصدر السابق، ص
- 20 . الأخضر جمعي، في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب، من منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، 2001م، ص: 171، نقلا عن القاضي عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد والعدل في إعجاز القرآن، 16 / 197.
- 21 . ينظر: الأخضر جمعي، ص: 185.
- 22 . عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 63.
- 23 . محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، د ط، 1996م، ص: 336.
- 24 . ينظر: المرجع السابق، ص: 337.
- 25 . عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 59-60.
- 26 . المصدر السابق.
- 27 . المصدر السابق، ص: 76-77.
- 28 . ينظر: جودت فخر الدين، شكل القصيدة العربية، ص: 53 .
- 29 . الجرجاني، دلائل الإعجاز للجرجاني، ص: 44 .
- 30 . ينظر: صالح بلعيد، نظرية النظم، ص: 139 .
- 31 . المرجع السابق، ص 50 .
- 32 . ينظر: جودت فخر الدين، شكل القصيدة العربية...، ص: 52.
- 33 . المرجع نفسه الصفحة نفسها .
- 34 . الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 302 .
- 35 . الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 284 .
- 36 . صالح بلعيد، نظرية النظم، ص: 139 .
- 37 . ينظر: المرجع السابق، ص: 140 .
- 38 . ينظر: فتحي عبد الفتاح الدجني، الإعجاز النحوي في القرآن، ص: 58 . 59.
- 39 . الزمخشري، مقدمة الكشاف.
- 40 . مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 242.